كثيرون يدّعون أنهم أغنياء، يملكون من قنية
العالم أشياء كثيرة. أما أنت يا أخي الحبيب، فقد تخلصت
من الشعور بالامتلاك، منذ أيقنت أن الملكية تقيّد
روحك. وأخذت تسعى في طريق:

انطلاق الروح[1]

لقد جئت إلى العالم بلا شك فقيرًا مثلي، لا تملك فيه شيئًا، "عُرْيَانًا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي" (أي١: ٢١). لا تملك الأقمطة التي قمطوك بها، ولا الفراش الذي أضجعوك عليه. وكل ما (امتلكته) في العالم بعد ذلك لم يكن في الواقع إلا عطية من الله. لم يكن ملكك، وإنما أمانة وضعها الله في يديك لفترة محدودة هي فترة العمر، وعندما تنقضي حياتك على الأرض ستخرج منها فقيرًا كما أتيت، عريانًا كما وُلدت. أما قنية العالم التي ادّعيت ملكيتها عندما كنت على الأرض، والتي تركتها رغمًا عنك، فسيدّعي ملكيتها غيرك، وينتقل من الأرض ليدّعي ملكيتها ثالث، وهكذا دواليك.. إنك لا تملك شيئًا إذًا حتى ذاتك. لم يكن لك ذات من قبل، إذ لم يكن لك كيان أو وجود، كنت عدمًا. ثم منحك الله ذاتًا. وعندما سقطت وأصبحت هذه الذات ملكًا للموت والهلاك، عاد الله واشتراها بدمه وافتداها لنفسه. أنت إذًا من كل ناحية لا تملك شيئًا حتى ذاتك؛ لذلك فالذي يخطئ إلى ذاته يخطئ إلى الله نفسه، لأنه يفسد نفسًا مُلكًا لله، ويفسد جسدًا سرَّ الله بعد أن امتلكه أن يجعله هيكلًا لروحه القدوس. وبالمثل، من يخطئ إلى الآخرين، فإنه مخطئ ضد الله نفسه، عن طريق مباشر وغير مباشر. لقد أخطأ داود ضد أوريا الحثي وزوجته، ومع ذلك قال لله: "إِلَيْكَ وَحْدَكَ أَخْطَأْتُ" (مز٥١: ٤). وليس السبب في ذلك مخالفته لله فحسب، وإنما خطيئته أيضًا ضد كائنين هما مُلك لله.

إن شعرت بهذا يا أخي الحبيب، أدركت خطورة الخطية ووضعها الدقيق؛ إنك لا تملك ذاتك حتى تتصرف فيها تصرف الملاك في أملاكهم.

أما من جهة المقتنيات، فقد شرحنا كيف أنها جميعًا ليست ملكك، وإنما هي عطية من الله. أنت مجرد إنسان استُؤمنت عليها ليدبرها بأمانة كما يليق بوكيل صالح. وهذا التدبير سيسألك الله عنه عندما يقول: "أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ" (لو١٦: ٢). من أجل هذا نجد ملكًا غنيًا جدًا كداود يرى الأمور على حقيقتها، فيقول: "أما أنا فمسكين وفقير" (مز٦٩: ٢٩). لم يكن فقيرًا حسب العرف البشري الخاطئ، ولكنه حقًا لا يملك شيئًا بحسب النظرة الروحية السليمة. ومن أجل هذا أيضًا كنا نجد الآباء القديسين ينذرون الفقر الاختياري، وينظرون إليه كأحد الأعمدة التي تقوم عليها حياتهم الرهبانية.

---

[1] نظير جيد "انطلاق الروح"، مجلة مدارس الأحد، السنة السابعة، العدد الخامس، يوليو ١٩٥٣م.

وبهذا يمكنك أن تفهم الصدقة بمعناها الصحيح: أنك لا تعطي من مالك شيئًا، وإنما أنت تعطي لخليقة الله من مال الله. الأمر إذن لا يدعو إلى البر الذاتي أو الفخر، ولا يدعو أيضًا إلى أن تفكر في الابتعاد عن مدح الناس لك، بأن تمدح نفسك بالتصدق تحت إمضاء "فاعل خير". أعجبني متبرع قرأت إمضاءه، فإذا هو: "فاعل شر يرجو الصلاة من أجله". إن الكائن الوحيد الذي يتصدق من ماله على الناس هو الله.

ولست أحب أن أسمي الصدقة فضيلة، حيث إنها ليست فضلًا أو تفضلًا من المتصدق. وهو لا يعدو أن يكون، كما قلنا، موصلًا لنعمة الله إلى الآخرين. وما يقال عن الصدقة يقال عن باقي الأعمال الحسنة التي لا يمكن أن تعتبر فضلًا من أحد.

يلحق بالصدقة عنصر آخر وهو الشكر عليها. كيف تقبل يا أخي أن يشكر الناس على شيء لم تدفعه من عندك؟ إن كان المال مال الله، فكيف تشكر أنت عليه، وكيف ترضى بقبول هذا الشكر؟ أعط مجدًا لله، وتوارَ ليظهر هو، فهو الذي عمل العمل كله.

إن الشعور بالامتلاك قد يقيّد روحك، ويشعرك بما ليس فيك حقيقة؛ فاهرب منه، ليس إنكارًا لذاتك، وإنما اعترافًا بحقيقتك، والله معك.